شَرْحُ رِسَالَةِ

" أَصْلِ دِينِ الإِسْلَامِ وَ قَاعِدَتِهِ "

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ حسن –رَحِمَهُ اللهُ تعالَى- شَرْحاً لِكَلَامِ جَدِّهِ، الشَّيخِ : مُحمد، رَحِمَهُمَا اللهُ تعالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

قُوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : أَصْلُ دينِ الإِسْلامِ ، وَ قَاعِدَتُهُ أَمْرَانِ :

الأَوَّلُ : الأمرُ بعبادةِ اللهِ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، وَ التَّحْرِيضُ عَلَى ذَلِكَ،

وَ الموالاةُ فِيهِ، وَ تَكْفِيرُ مَنْ تَرَكَهُ .

قُلْتُ : وَ أَدِلَّةُ هَذا في القرآنِ أَكثرُ من أن تُحصَرْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) الآية [آل عمران ٦٤].

أمرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ أن يَدْعُوَ أهلَ الكتابِ ، إلى معنى لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، الذِي دَعَا إِلَيْهِ العَرَبَ وَ غَيْرَهُم .

و الكلمةُ هي : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، فَفَسّرَهَا بِقَوْلِهِ: (أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ) فقولُهُ : أَلَّا نَعْبُدَ؛ فِيهِ معنى : لَا إِلَهَ ، وَهُوَ نَفْيُ العِبَادَةِ عَمّا سِوَى الله ، وَقولُهُ : إِلَّا الله ، هو : المُسْتَثْنَى فِي كَلمةِ الإخلاصِ، فَأَمَرهُ تَعَالَى أن يدْعُوَهُم إلى قَصْرِ العِبَادَةِ عَلَيْهِ وَحْدَهُ وَنَفْيِهَا عمن سِواهُ ، وَمِثْلُ هذِهِ الآيةِ كَثِيرٌ ، يبين أنَّ الإلهيةَ هي العبادَة ، وَ أَنها لَا يَصلُحُ منهَا شيءٌ لغيْرِ اللهِ ، كَمَا قَال تعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) [الإسراء ٢٣] ، مَعْنَى قَضَى : أَمَرَ ، وَ وَصَّى ، قَوْلَانِ ، وَمَعْنَاهُمَا وَاحِد ، وَقَوْلُهُ : (أَلَّا تَعْبُدُوا) : فيهِ معنَى : لَا إِلَهَ ، وَقولُهُ : (إِلَّا إِيَّاهُ) فيهِ معنَى: إِلَّا الله.

وَهذا هُو تَوحيدُ العِبادَةِ ، وَهُوَ دَعْوَةُ الرُّسُلِ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِم : (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) [المؤمنون : ٣٢] ، فلا بُدّ مِنْ نَفْيِ الشِّرْكِ فِي العِبَادَةِ رَأْساً، وَ البَرَاءَةِ مِنْهُ ، وَمِمَّنْ فَعَلَهُ ، كَمَا قَالَ تَعالَى عَنْ خَلِيلِهِ إبرَاهيمَ عَلَيْهِ السَّلام:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) [الزخرف: ٢٦-٢٧] ، فَلا بدّ مِنَ البَرَاءَةِ مِنْ عِبَادَةِ مَا كَانَ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ .

وَقَالَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) [مريم : ٤٨] ،

فَيَجِبُ اعْتِزَالُ الشِّرْكِ وَ أَهْلِهِ، بِالبَرَاءَةِ مِنْهُمَا ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) [الممتحنة : ٤] ، وَالذِينَ مَعَهُ هُم : الرُّسُلُ ، كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِير .

وَهذِهِ الآيَةُ: تَتَضَمَّنُ جَمِيعَ مَا ذَكَرَهُ شَيْخُنَا –رَحِمَهُ الله- مِن التَّحْرِيضِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَنَفْيِ الشِّرْكِ ، وَ المُوَالَاةِ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَ تَكْفِيرِ مَنْ تَرَكَهُ ، بِفِعْلِ الشِّرْكِ المُنَافِي لَهُ ، فَإِنَّ مَنْ فَعَلَ الشِّرْكَ فَقَدْ تَرَكَ التَّوْحِيدَ ، فَإِنَّهُمَا ضِدّانِ لَا يَجْتَمِعَان ، فَمَتَى وُجِدَ الشِّرْكُ انْتَفَى التَّوْحِيدُ .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي حَالِ مَنْ أَشْرَك : (وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) [الزمر : ٨] ، فَكَفَّرَهُ تَعَالَى بِاتّخَاذِ الأَنْدَادِ، وَهُم الشُّرَكَاءُ فِي العِبَادةِ، وَ أَمْثَالُ هذهِ الآيَاتِ كَثِيرَة، فَلَا يَكُونُ مُوَحِّداً إِلا بِنَفْيِ الشِّرْكِ، وَ البَرَاءَةِ مِنْهُ ، وَتَكْفِيرِ مَنْ فَعَلَهُ .

ثُمّ قَالَ رَحِمهُ اللهُ تَعَالَى :

الثاني : الإِنْذَارُ عَن الشِّرْكِ فِي عِبَادَةِ اللهِ ، وَ التَّغْلِيظُ فِي ذَلِكَ ، وَ المُعَادَاةُ فِيهِ ، وَتَكْفِيرُ مَنْ فَعَلَهُ ، فَلَا يَتِمُّ مَقَامُ التَّوْحِيدِ إِلا بِهَذَا ، وَ هُوَ دِينُ الرُّسُلِ ، أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ عَنِ الشِّرْكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل : ٣٦] ، وَ قَالَ تَعَالَى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء : ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) [الأحقاف : ٢١] .

قَوْلُهُ : فِي عِبَادَةِ اللهِ ، العِبَادَةُ : اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَ يَرْضَاهُ ، مِن الأَقْوَالِ و الأَعْمَالِ البَاطِنَةِ وَ الظَّاهِرَة .

قَوْلُهُ : وَ التَّغْلِيظُ فِي ذَلِكَ ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي الكِتَابِ وَ السُّنّة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) [

الذاريات : ٥٠ – ٥١] ، وَلَوْلَا التَّغْلِيظُ، لَمَا جَرَى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ أَصْحَابِهِ مِنْ قُرَيْشٍ مَا جَرَى ، مِن الأَذَى العَظِيمِ ، كَمَا هُو مَذْكُورٌ فِي السِّيرِ مُفَصَّلاً ، فَإِنَّهُ بَادَأَهُم بِسَبِّ دِينِهِمْ ، وَ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ .

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى : وَ المُعَادَاةُ فِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) [التوبة : ٥] ، و الآيَاتُ في هَذَا كَثِيرَةٌ جِداً ، كَقَوْلِهِ: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) [الأنفال : ٣٩] ، وَ الفِتْنَةُ : الشِّرْكُ .

وَ وَسَمَ تَعَالَى أَهْلَ الشِّرْكِ بِالكُفْرِ فِيمَا لَا يُحْصَى مِنَ الآيَاتِ، فَلا بُدَّ مِنْ تَكْفِيرِهِم أَيْضاً، وَهَذَا هُوَ مُقْتَضَى : لَا إِلَهَ إِلّا الله ، كَلِمَة الإِخْلَاص ، فَلا يَتِمُّ مَعْنَاهَا إِلا بِتَكْفِيرِ مَنْ جَعَلَ لِله شَرِيكاً فِي عِبَادَتِهِ ، كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ((مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ)) فَقَوْلُهُ : وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ : تَأْكِيدٌ لِلنَّفْيِ، فَلا يَكُونُ مَعْصُومَ الدَّمِ وَ المَالِ إِلا بِذَلِكَ ، فَلَوْ شَكّ، أَوْ تَرَدَّدَ، لَمْ يُعْصَمْ دَمُهُ وَ مَالُهُ .

فَهَذِهِ الأُمُورُ : هِيَ تَمَامُ التَّوْحِيدِ؛ لأَنَّ " لا إِلَهَ إلا اللهُ " قُيِّدَتْ فِي الأَحَادِيثِ بِقُيُودٍ ثِقَال :

بِالعِلْمِ ، وَ الإِخْلاصِ ، وَ الصِّدْقِ ، وَ اليَقِينِ ، وَعَدَمِ الشَّكِّ ، فَلَا يَكُونُ المَرْءُ مُوَحِّداً ، إِلا بِاجْتِمَاعِ هَذَا كُلِّهِ ، وَاعْتِقَادِهِ ، وَ قَبُولِهِ ، وَ مَحَبَّتِهِ ، وَ المُعَادَاةِ فِيهِ ، وَ المُوَالَاةِ ، فَبِمَجْمُوعِ مَا ذَكَرَهُ شَيْخُنَا –رَحِمَهُ اللهُ- يَحْصُلُ ذَلِكَ .

ثُمّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَ المُخَالِفُ فِي ذَلِكَ أَنوَاعٌ ، فَأَشَدُّهُمْ مُخَالَفَةً مَنْ خَالَفَ فِي الجَمِيعِ ، فَقَبِلَ الشِّرْكَ وَ اعْتَقَدَهُ دِيناً ، وَ أَنْكَرَ التَّوْحِيدَ ، وَ اعْتَقَدَهُ بَاطِلاً ، كَمَا هُوَ حَالُ الأَكْثَرِ ، وَ سَبَبُهُ : الجَهْلُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَ السُّنَّة، مِنْ مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ ، وَ مَا يُنَافِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَ التَّنْدِيدِ، وَ اتِّبَاعِ الأَهْوَاءِ ، وَ مَا عَلَيْهِ الآبَاءُ ، كَحَالِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَمْثَالِهِمْ ، مِنْ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ ، فَرَمَوْا أَهْلَ التَّوْحِيدِ بِالكَذِبِ، وَ الزُّورِ ، وَ البُهْتَانِ ، وَ الفُجُورِ ؛ وَحُجَّتُهُمْ : (بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) [الشعراء : ٧٤] .

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ النَّاسِ ، وَ الذِي بَعْدَهُ ، قَدْ نَاقَضُوا مَا دَلّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ وَ مَا وُضِعَتْ لَهُ ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الدِّينِ ، الذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ دِيناً سِوَاهُ ، وَهُوَ دِينُ الإِسْلَامِ الذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ جَمِيعَ أَنْبِيَائِهِ وَ رُسُلِهِ ، وَ اتَّفَقَتْ دَعْوَتُهُمْ عَلَيْهِ ، كَمَا لَا يَخْفَى فِيمَا قَصّ اللهُ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ .

ثُمّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ : وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ ، وَ لَمْ يُنْكِرِ الشِّرْكَ ، وَلَمْ يُعَادِ أَهْلَهُ .

قُلْتُ : وَمِنَ المَعْلُومِ : أَنَّ مَنْ لَمْ يُنْكِرِ الشِّرْكَ ، لَمْ يَعْرِف التَّوْحِيدَ ، وَلَمْ يَأْتِ بِهِ ؛ وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا يَحْصُلُ إلا بِنَفْيِ الشِّرْكِ ، وَ الكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ المَذْكُورِ فِي الآيَة .

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى : وَمِنْهُمْ مَنْ عَادَاهُمْ وَلَمْ يُكَفّرْهُمْ ؛ فَهَذَا النَّوْعُ أَيْضاً لَمْ يَأْتِ بِمَا دَلّتْ عَلَيْهِ " لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ " مِنْ نَفْيِ الشِّرْكِ وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنْ تَكْفِيرِ مَنْ فَعَلَهُ ، بَعْدَ البَيَانِ إِجْمَاعَاً ، وَهُوَ مَضْمُونُ سُورَةِ الإِخْلَاصِ ، وَ (قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ) ، وَقَوْلِهِ فِي آيَةِ المُمْتَحِنَة : (كَفَرْنَا بِكُمْ) ، وَمَنْ لَمْ يُكَفّرْ مَنْ كَفّرَ القُرْآنُ ، فَقَدْ خَالَفَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَمَا يُوجِبُهُ .

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ : وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُحِبّ التَّوْحِيدَ ، وَلَمْ يُبْغِضْهُ؛ فَالجَوَابُ : أَنّ مَنْ لَمْ يُحِبّ التَّوْحِيدَ ، لَمْ يَكُنْ مُوَحِّداً ، لأَنَّهُ هُوَ الدِّينُ ، الذِي رَضِيَهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ ، كَمَا قَالَ : (وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً) [المائدة : ٣] ، فَلَوْ رَضِيَ بِمَا رَضِيَ بِهِ اللهُ ، وَعَمِلَ بِهِ لَأَحَبَّهُ ، وَلَا بُدّ مِنَ المَحَبَّةِ ، لِعَدَمِ حُصُولِ الإِسْلَامِ بِدُونِهَا ، فَلَا إِسْلَامَ إِلَّا بِمَحَبَّةِ التَّوْحِيدِ .

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ : الإِخْلَاصُ : مَحَبَّةُ اللهِ ، وَ إِرَادَةُ وَجْهِهِ ، فَمَنْ أَحَبَّ اللهَ أَحَبَّ دِينَهُ ، وَمَا لَا فَلَا ، وَ بِالمَحَبَّةِ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مَا تَقْتَضِيهِ كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ ، مِنْ شُرُوطِ التَّوْحِيدِ .

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُبْغِض الشِّرْكَ وَلَمْ يُحِبَّهُ ، قُلْتُ : وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ ، فَلَمْ يَنْفِ مَا نَفَتْهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنَ الشِّرْكِ ، وَ الكُفْرِ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَ البَرَاءَةِ مِنْهُ ، فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ أَصْلاً ، وَلَمْ يَعْصِمْ دَمَهُ ، وَلَا مَالَهُ ، كَمَا دَلّ عَلَيْهِ الحَدِيثُ المُتَقَدِّم .

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ : وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعْرِف الشِّرْكَ ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ . قُلْتُ : مَنْ لَمْ يَعْرِف الشِّرْكَ ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ ، لَمْ يَنْفِهِ ، وَلَا يَكُونُ مُوَحِّداً إِلَّا مَنْ نَفَى الشِّرْكَ ، وَ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، وَمِمّنْ فَعَلَهُ ، وَكَفّرَهُمْ ، وَ بِالجَهْلِ بِالشِّرْكِ لَا يَحْصُلُ شَيْءٌ مِمّا دَلّتْ عَلَيْهِ لا إِلَهَ إِلّا اللهُ ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ بِمَعْنَى هَذِهِ الكَلِمَةِ وَمَضْمُونِهَا ، فَلَيْسَ مِن الإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ وَمَضْمُونِهَا ، عَنْ عِلْمٍ وَ يَقِينٍ ، وَصِدْقٍ وَ إِخْلَاصٍ ، وَمَحَبَّةٍ وَقَبُولٍ ، وَ انْقِيَادٍ ، وَهَذَا النَّوْعُ لَيْسَ مَعَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، وَ إِنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَا دَلّتْ عَلَيْهِ ، وَلَا مَا تَضَمَّنَتْهُ .

ثُمّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعْرِف التَّوْحِيدَ ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ . فَأَقُولُ : هَذَا كَالّذِي قَبْلَهُ ، لَمْ يَرْفَعُوا رَأْسَاً بِمَا خُلِقُوا لَهُ مِن الدِّينِ ، الذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ ، وَهَذِهِ الحَالُ : حَالُ مَنْ قَالَ اللهُ فِيهِمْ : (إِنْ هُمْ إِلّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) ، [الفرقان : ٤٤] .

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ : وَمِنْهُمْ – وَهُوَ أَشَدُّ الأَنْوَاعِ خَطَراً – مَنْ عَمِلَ بِالتَّوْحِيدِ ، وَلَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ ، فَلَمْ يُبْغِضْ مَنْ تَرَكَهُ، وَلَمْ يُكَفِّرْهُمْ ، فَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ : وَهُوَ أَشَدُّ الأَنْوَاعِ خَطَراً ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ مَا عَمِلَ بِهِ ، فَلَمْ يَجِيءْ بِمَا يُصَحِّحُ تَوْحِيدَهُ ، مِن القُيُودِ الثِّقَالِ التِي لَا بُدّ مِنْهَا ، لِمَا عَلِمْتَ أَنّ التَّوْحِيدَ يَقْتَضِي : نَفْيُ الشِّرْكِ ، وَ البَرَاءَةُ مِنْهُ ، وَ مُعَادَاةُ أَهْلِهِ ، وَ تَكْفِيرُهُمْ ، مَعَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، فَهَذَا قَدْ يَغْتَرُّ بِحَالِهِ ، وَ هُوَ لَمْ يَجِيءْ بِمَا عَلَيْهِ مِن الأُمُورِ ، التِي دَلّتْ عَلَيْهَا كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ ، نَفْياً وَ إِثْبَاتاً .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ : وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَ الشِّرْكَ وَ كَرِهَهُ ، وَلَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ ، فَهَذَا أَقْرَبُ مِن الذِي قَبْلَهُ ، لَكِنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ الشِّرْكِ ، لِأَنَّهُ لَوْ عَرَفَ قَدْرَهُ ، لَفَعَلَ مَا دَلّتْ عَلَيْهِ الآيَاتُ المُحْكَمَاتُ ، كَقَوْلِ الخَلِيلِ : (إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الذِي فَطَرَنِي) [الزخرف : ٢٦ – ٢٧] ، وَقَوْلُهُ : (إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَ البَغْضَاءُ أَبَداً) [الممتحنة : ٤] .

فَلَا بُدّ لِمَنْ عَرَفَ الشِّرْكَ وَ تَرَكَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ ، مِن الوَلَاءِ وَ البَرَاءِ، مِن العابِدِ وَ المَعْبُودِ ، وَبُغْضِ الشِّرْكِ وَ أَهْلِهِ ، وَ عَدَاوَتِهِمْ ، وَهَذَانِ النَّوْعَانِ : هُمَا الغَالِبُ عَلَى أَحْوَالِ كَثِيرٍ مِمَّن يَدَّعِي الإِسْلَامَ ، فَيَقَعُ مِنْهُمْ مِنَ الجَهْلِ بِحَقِيقَتِهِ ، مَا يَمْنَعُ الإِتْيَانَ بِكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ ، وَمَا اقْتَضَتْهُ عَلَى الكَمَالِ الوَاجِبِ ، الذِي يَكُونُ بِهِ مُوَحِّداً ، فَمَا أَكْثَرَ المَغْرُورِينَ ، الجَاهِلِينَ بِحَقِيقَةِ الدِّينِ .

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ كَفّرَ أَهْلَ الشِّرْكِ ، وَ وَصَفَهُمْ بِهِ فِي الآيَاتِ المُحْكَمَاتِ ، كَقَوْلِهِ : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ) [التوبة : ١٧] وَكَذَلِكَ السُّنَّة .

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : فَأَهْلُ التَّوْحِيدِ وَ السّنّةِ ، يُصَدِّقُونَ الرُّسُلَ فِيمَا أَخْبَرُوا ، وَيُطِيعُونَهُمْ فِيمَا أَمَرُوا ، وَ يَحْفَظُونَ مَا قَالُوا ، وَيَفْهَمُونَهُ ، وَ يَعْمَلُونَ بِهِ ، وَ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ ، وَ انْتِحَالَ المُبْطِلِينَ ، وَ تَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ ، وَ يُجَاهِدُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ ، تَقَرُّباً إِلَى اللهِ ، وَ طَلَباً لِلْجَزَاءِ مِن اللهِ ، لَا مِنْهُمْ ، وَ أَهْلُ الجَهْلِ وَ الغُلُوِّ : لَا يُمَيّزُونَ بَيْنَ مَا أَمَرُوا بِهِ وَ نَهَوْا عَنْهُ ، وَلَا بَيْنَ مَا صَحَّ عَنْهُمْ ، وَ مَا كُذِبَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا

يَفْهَمُونَ حَقِيقَةَ مُرَادِهِمْ ، وَ لَا يَتَحَرَّوْنَ طَاعَتَهُمْ ، بَلْ هُمْ جُهّالٌ لِمَا أَتَوْا بِهِ ، مُعَظِّمُونَ لِأَغْرَاضِهِمْ .

قُلْتُ : مَا ذَكَرَهُ شَيْخُ الإِسْلَامِ ، يُشْبِهُ حَالَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ الأَخِيرَيْنِ ، بَقِيَ مَسْأَلَةٌ حَدَثَتْ ، تَكَلَّمَ بِهَا شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة ، وَهِيَ : عَدَمُ تَكْفِيرِ المُعَيّنِ ابْتِدَاءً ، لِسَبَبٍ ذَكَرَهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، أَوْجَبَ لَهُ التَّوَقُّفَ فِي تَكْفِيرِهِ ، قَبْلَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ ، قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لَمْ يَشْرَعْ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُوَ أَحَداً مِن الأَمْوَاتِ ، لَا الأَنْبِيَاءِ ، وَلَا الصَّالِحِينَ ، وَلَا غَيْرِهِمْ ، لَا بِلَفْظِ الاسْتِغَاثَةِ ، وَلَا بِغَيْرِهَا ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَشْرَعْ لِأُمَّتِهِ السُّجُودَ لِمَيِّتٍ ، وَ لَا إِلَى مَيِّتٍ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ ، بَلْ نَعْلَمُ أَنَّهُ نَهَى عَنْ هَذِهِ الأُمُورِ كُلِّهَا ، وَ أَنَّ ذَلِكَ مِن الشِّرْكِ ، الذِي حَرَّمَهُ اللهُ وَ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَلَكِنْ : لِغَلَبَةِ الجَهْلِ ، وَ قِلَّةِ العِلْمِ بِآثَارِ الرِّسَالَةِ فِي كَثِيرٍ مِن المُتَأَخِّرِينَ ، لَمْ يُمْكِنْ تَكْفِيرُهُمْ بِذَلِكَ ، حَتَّى يُبَيِّنَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، مِمَّا يُخَالِفُهُ ، انتَهَى .

قُلْتُ : فَذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، مَا أَوْجَبَ لَهُ عَدَمَ إِطْلَاقِ الكُفْرِ عَلَيْهِمْ ، عَلَى التَّعْيينِ خَاصَّةً ، إِلَّا بَعْدَ البَيَانِ وَ الإِصْرَارِ ، فَإِنَّهُ قَدْ صَارَ أُمَّةً وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّ مِن العُلَمَاءِ مَنْ كَفَّرَهُ بِنَهْيِهِ لَهُمْ عَن الشِّرْكِ فِي العِبَادَةِ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمِثْلِ مَا قَالَ ، كَمَا جَرَى لِشَيْخِنَا : مُحَمّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي ابْتِدَاءِ دَعْوَتِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَهُمْ يَدْعُونَ زَيْداً بْنَ الخَطَّابِ ، قَالَ : اللهُ خَيْرٌ مِنْ زَيْدٍ ، تَمْرِيناً لَهُمْ عَلَى نَفْيِ الشِّرْكِ ، بِلِينِ الكَلَامِ ، نَظَراً إِلَى المَصْلَحَةِ ، وَ عَدَمِ النُّفْرَةِ ، وَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ ، وَ صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَ صَحْبِهِ وَ سَلَّمَ .

"الحَمْدُ للهِ الذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ"